خطبة شيشرون في المحاماة عن ليكاريوس

تمهيد للمترجم

قلَّت اذن بشر في الخافقين لم تسمع باسم شيشرون فخر الرومانيين وامام خطبائهم غير ان خطبهُ لم تنقل الى اللسان العربي فيما اعلم ولشدَّ ما كان يشوقني ما اسمعهُ واقرأهُ من اطراء بلاغته أن اقف على خطبهِ لكي أرى اين هو من هذا الصيت الذي جاب الارض وازداد رفعةً على تطاول الدهر لكن الاعمال التي كنت ازاول لم تكن تبقي لي من الوقت الاَّ ما لا بدَّ منهُ لاستجمام القوَّة واستعادة النشاط وقد تيسَّر لي هذه السنة الاشتغال بتصنيف يطلب مثل هذه المطالعات وكان فيما قرأت خطبة لهُ في الدفاع عن ليكاريوس وردَّ دعوى تيبرون عليهِ مترجمة بالفرنسويَّة ومطبوعة في باريز سنة ١٨٥٣ مع الاصل اللاتيني فنقلتها الى العربيَّة حبَّ ان يطَّلع عليها من الناطقين بالضاد من لا سبيل لهم الى الوقوف على ما لصاحبها من الخطب الاَّ مترجمًا بالعربية وهذه الخطبة هي التي حملت قيصر ان يعفو عن ليكاريوس بما تضمنت من قوة الاحتجاج ولطف الاستعطاف وكلَّلت بابهر الانتصارات الخطابيَّة ألا وان قيصر لتأثرهِ من بعض فقرها سقطت من يديهِ الالواح التي كان قد خطَّ فيها القضاء على ليكاريوس وتلك هي الفقر التي دافع بها عن ليكاريوس وعلَّق بعنق تيبرون تلك الجناية التي نجَّى بها على ليكاريوس ومثَّلهُ للعيان يتناول قيصر باشدَّ العداوة في واقعة فرسال وبيَّن على رؤوس الملا انهُ اكبر من ليكاريوس جرمًا

والذي وصل الى ايدي الناس من خطب شيشرون ٥٦ خطبة بعضها قضائيَّة دافع بها عن المتهمين وبعضها سياسيَّة وقد خدمها الكتاب والخطباء وفُرض استظهارها على الطلبة ولم تزل في مقدَّمة الامثلة التي يحتذى عليها . ولقد انشأ عدَّة مصنفات في علم الخطابة لا يزال علَم شرفها منشورًا . ونصارى القول ان بقاء كتب شيشرون وخطبهِ في الرتبة الاولى في جميع الممالك الافرنجيَّة وقد نبغ فيها من الخطباء والادباء خلق كثير لا يذكرونها الاَّ بالثناء بعد التنقيب وتدقيق النظر من كل وجهٍ من الوجوه التي يقضي بها الخطبة او عليها يتظلم دليلين على امرين الدليل الاوَّل على علو طبقتها والدليل الثاني على سعة علم المترجمين وسلامة صدورهم من التعصُّب لهُ اوعليهِ

(١) Ligarius رومانيٌّ اشهر بمدافعة قيصر وخطبة شيشرون بيلاغتهِ وفرَّة بيانهِ وتوفي ليكاريوس هذا في السنة ٤٦ قبل المسيح

ألا ليت شعري هل سمع عن عالم عالم تفريظ لا مسوغ لهُ الاَّ الحبّ او جامعة من الجوامع ام هل نُقِّص عن عالم عالم انتقاد لم يحمل عليهِ الاَّ حسدٌ لتَّقد في الصدر نارهُ بل ليت شعري هل كان الحبّ هو الذي دفع ابولونيوس حتى يقول لشيشرون يوم خلب ألباب اليونان بطلاوة بيانهِ وحملهم على تصدية الاستحسان مرارًا ما هذا تعريبهُ بالحرف الواحد "انا أُطريك اطراء لا شكَّ فيهِ واعجب منك لكني اتلهَّف اسفًا على حظ بلاد اليونان فلم يبقَ لها الاَّ مجد الخطابة وقد اوشكت ان تسلبها اياهُ وتهبهُ للرومانيين" . فهذا كلام عارف صادق لم يعمِ بصيرتهُ الهوى ولم يدفعهُ الى الخروج عن الصواب . وكفى هذا الرجل فخرًا ان يقال فيهِ مثل هذا الكلام

ولقد بقي عليَّ ان اذكر ان هذا الخطيب ولد سنة ١٠٦ وتوفي قبيلاً سنة ٤٣ قبل المسيح وبذل على تنشئتهِ غاية ما في الوسع وهو فقد تعلم اليونانيَّة وبرع فيها حتى صار من الطراز الاول كما كان في لغتهِ اللاتينية ومن شيوخهِ اركياس نزيل رومة وسيفولا الذي علَّمهُ الفقه وفيلون الذي علَّمهُ التعاليم الافلاطونيَّة وسوسيان ديودت الذي علَّمهُ المنطق وابولونيوس الشهير استاذ الخطابة في رودس الذي خرَّجهُ في طريقة الاداء واساليب الالقاء وهو الذي نقلنا ترجمة تقريظهِ لهُ . وهو من محاسن مكرَّم غير ان احدًا من عشيرتهِ لم يتقلَّد منصبًا من مناصب الدولة ولذلك كان يقال "شيشرون رجلٌ جديدٌ" وكان اوَّل طلبهِ الانتظام في عداد خدَّام الدولة يُعيِّر بلقبهِ فقال "ليتَ لأجلهِ اشرف لقب عند الرومانيين وقد نعمرك أيرٌ قمنُ

الخطبة

(١) قيصر ان تيبرون احد النبلاء قد رفع الى مقامك شكاية جديدة لم يُعرف لها نظير حتى اليوم . قد شكا ليكاريوس انهُ كان بانزيقية . ولقد تجرَّأ على الاعتراف بهذا الامر لما كان واثقًا بمكانتهِ عندك ولذلك بلغ ارتباكي الغاية القصوى . واذ كنت على يقين انك لم تطَّلع على الأمر بنفسك وان لا احد يعرفك بهِ رأيت من المفيد ان أُطلعك عليهِ انقاذًا لا ثيم . ولكن بما ان العدوَّ قد تحيَّل فكشف سرَّنا وصاحبي قد اخذ عليَّ سبيل البقاء على ما كان في قصدي بادئ الامر فلا أُنكر شيئًا ولا ملاذ لي الاَّ ما اخبرهُ كثير من ابناء الوطن من حلمك وكرم سجيَّتك ولا سيما ان حلمك أنالهم من نسيان الزلة فوق ما أنالهم من العفو والمغفرة ومن ثمَّ فقد ظفرت ياتيبرون بما هو احبُّ شيء الى المشتكي اي باقرار المشتكى عليهِ . لكن بماذا اقرَّ اقرَّ بانهُ شايع الحزب الذي شايعتهُ انت والذي ابوك الجليل كان

مثلك تعلُّقاً به فلا بدَّ تكليكما قبل ان تعيبا ليكاريوس ان تعرفا انفسكما مجترمين نفس الجريمة التي اجترم

ان ليكاريوس أُقيم وكيلاً لكونسيديوس فشخص الى افريقية وليس ثمَّة من دليل على الحرب . وكان في منصبه هذا يستألف ويستميل الوطنيين والاحلاف وان كونسيديوس لو ألقى مقاليد الولاية الى آخر لكان قد يرح ذلك الاقليم وهو يحبّب آمال اهله عامة . واما ليكاريوس فقد امتنع طويلاً عن قبول القيادة حتى المأتة الحال بعد الاباء الشديد ان يقبلها . ولقد احسن الادارة كل ايام السلم ونهج منهج النصفة والنزاهة حتى احبتهُ قلوب الرومانيين والاحلاف وانطلقت ألسنتهم بالثناء عليه

فلما نشبت الحرب فجأةً علم الذين في افريقية قبل ان يعلم غيرهم ما أُعدَّ لها فلدن انتشر خبرها اخذ الغضب جماعةً واعمى الخوف جماعةً فطلبوا زعيماً يستطيع ان يخلصهم ويؤيد حزبهم . فلم يتقيَّد معهم ليكاريوس بعهد ولا حلف فان انظارهُ كانت طامحةً الى رومة ولا بغية لهُ الاَّ الانضمام الى حزبه

وفي هذه الاثناء ورد مدينة اوتيكا[1] فاريوس الذي كان والي الاقليم قديماً فتبادر الناس اليه من كل صوب والحال تبعث بفرط الرغبة على زمام السلطة ان صحَّ ان تسمى سلطة السلطة التي يأخذها رجل مجرَّد هتاف دهماء[2] عمياء لم تشترك معها الحكومة البتَّة . اما ليكاريوس فسُرَّ بأن لم يكن لهُ دخلٌ في شيء من جميع هذه الحركات وقد شعر ببعض الراحة عند وفود فاريوس المشار اليه

(٣) فالى الآن ليكاريوس غير ملوم . لم يغادر رومة لاضرام نار الحرب بل لم يكن يخالج ضميرهُ ان ستصطلى حرب . ولما تُلقِّد الوكالة سافر ايام السلم ولما كان يدبر شؤون خير الاقاليم وأكثرها امناً واطمئناناً كان من مصلحته ان يستمرَّ الاطمئنان فاكان سفرهُ موجباً لسخطك البتة وان كنت تؤاخذهُ على اقامته بافريقية فذهابهُ اليها لم يقع عن مقصد سيء واقامتهُ بها كانت بحكم الضرورة ولم يكن فيها الاَّ شريفاً . وبناء على ذلك سواء سافر بصفة انهُ والٍ وسواء قبل ولاية افريقية بطلب الاقليم فلا سبيل الى ان يوجه اليه عتاب او لومٌ في هاتين المدتين

اما مكثهُ في مدينة أوتيكا بعد وفود فاريوس اليها فان كان جناية فمن غير اختيار بل عن اضطرار . ولو أن الامر في يدي لا قلت ولوازنَّ بين مدينة اوتيكا ورومة ولقابل بين

(١) مدينة قديمة بافريقية . اشتهرت بالفخار كانون الرومانيين فيها ولذلك دعي كاتون الاَّ وتيكيَّ
(٢) الدهماء : العامة

القنيوس واخوته الاعزاء عليه وبين الغرباء وبين اهله وعشيرته (١) فقرط محبته لم كان له كل مدة ولاخيه داعي الأسف والجزع فانى يرتضي ان ينفصل عنهم ليسير تحت اعلام الاعداء

فاذن يا قيصر لم تجد في اعمال ليكاريوس حتى الساعة دليلاً على خبث نيته

وانظر باي ثقة أدافع عنهُ . اعون معلمتي في خدمة مصلحته فيا لها من شقة عجيبة ويا لها من فضيلة جديرة بكل اماديحنا وحقيقة بان الاقلام تقيم لها الذكر الخالد . وحسبك ان شيشرون يتكرر بين يديك ان المحامي عنهُ كانت لهُ هذه المقاصد التي يعترف انها كانت مقاصدهُ دون من عداهُ ولم يخش ما ربما يخطر لك فيهِ وهو يحامي عن ذلك الشخص

(٣) ألا انظر أي اطمئنان لي ألا انظر الى ما لكوسك وحكمتك من عظيم الوقع عندي وقد هممت ان اصيح باعلى صوتي حتى يسمع كلامي الشعب الروماني كلهُ

قيصر ان الحرب كانت قد ابتدأت وكانت كأنها قد انتهت يوم هممتُ مختاراً غير مكره ان انضم الى الثائرين عليك

اذن الى من اسوق كلامي اسولهُ الى من احاط علماً بكل اعمالي ولم ينتظر ان يراني لكي يردني الى المشيخة . الى الذي كتب اليَّ من مصر أن حالتي في مأمن من أي تغيير . الى الذي انفرد في المملكة الرومانية بلقب امبراطور ولم يأنف ان اقاسمهُ هذا الشرف والجاه . الى الذي اخبرني على لسان بتصا الحاضر هذا النادي انهُ قد اباح لي ان احفظ الحزم المكللة بأكلة الغار ما شئت . الى من لا يعدّ انهُ صنع معي جميلاً ان لم يحافظ لي على كل هذه النعم اتمّ المحافظة

اتحسبني ايتيبرون اخشى ان اعترف لليكاريوس بما اعترفت بهِ لنفسي . مع ذلك قد تكلمت عن نفسي محاذرةً ان تيبرون يستقبح ان اذكر الشيء نفسهُ عنهُ . اني اهتم بامورهِ فكلانا مرتبط بحبال قرابة دموية ولقد طبت نفساً بما اوتيهُ من الذكاء والشغف بالآداب ولا جرم ان لي ان افتخر بمجد شاب من ذوي قرابتي

لكني اسألهُ من ذا الذي يؤاخذ لكاريوس على وجودهِ بافريقية ويعدهُ ذلك جريمة عليهِ فهو يجيب أن المؤاخذهُ على ذلك وجل مالت نفسهُ الى ان يكون بافريقية فشكى من ان ليكاريوس حال بينهُ وبين بغيتهِ بخصوص ذلك عليهِ ورجل انتهى بهِ الامر الى ان حارب قيصر نفسهُ . ما ذا كنت يا تيبرون تفعل في ميادين فرسال (٢) والسيف بيدك تريق بهِ

---

(١) العشيرة : ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه ونسل رحمه وعشيرته الادنون من مضى وغبر

(٢) مدينة قديمة بناحية من بلاد اليونان يقال لها تسالية وفي فرسال هذه انتصر قيصر على بومبه بعد ملحمة هائلة

الصماء . ما الدم الذي كنت تريد ان تسفكهُ وفي شاكلة من كنت تريد ان تغمد حسامك وعلى مَن هاج هائجك وفار فائرك . فأيّ عدوٍّ كنت تبغي الايقاع بهِ . ماذا كنت تريد وماذا كنت تتمنى

(٤) وآخر الامر يا تيبرون ما كانت بغيتنا الاَّ ان نفعل ما يفعلهُ المنتصر اليوم ومن ثمَّ يا قيصر فالذين تجاوز بك الحلم عن جناياتهم واصبحوا بمعزل عن العقوبة هم يدعونك الى الشدة والقسوة . آه يا تيبرون هذا امر لا ارى فيهِ اثرًا لحكمتك ولا اثرًا لحكمة والدك على تميُّزهِ بقوة العقل وغزارة المعارف . لم يرَ عواقب شكوى مثل هذه والاَّ لرسم لك خطة غير هذه الخطة . قد افرغت جهدك ان تجرّم من هو مقرٌّ بجرمهِ بل انك قد اشكيت على من هو اخفُّ منك جرمًا او ان كان لهُ ذنبٌ فهو الذنب الذي انت تعترف انك اقترفتهُ

فهذا ولا ريب صنيع ادهش منهُ . والامر الذي لا يكاد يصدق هو ان شكواك لا تقف عند في ليكاريوس بل تتخطى الى اهلاكهِ . وما من رومانيٍّ قبلك تجرأ على ما تجرأتَ عليهِ فذلك خلق غريب عندنا اجنبيٌّ عنا . فلم يتعود ارواء الحقد بسفك الدم الاَّ اليونان والبرابرة . وماذا تطلب مع ذلك . اتطلب ان لا يكون لكاريوس في رومه وان لا يعيش مع عترتهِ ومع اخوتهِ ومع بروكيوس عمهِ ومع ابن عمهِ هذا ومنا . أتطلب ان لا يكون في وطنهِ . لكن هل هو في وطنهِ . وهل في الامكان ان يحرّم عترتهُ واحباءهُ اكثر مما هو محرومهم . ابواب ايطاليا مسدودة في وجههِ هو منفيٌّ مغرَّب . ليس هو في وطنهِ الذي تبغي ان تحرمهُ اياهُ . ما من احد التمس مثل هذا الملتمس حتى من الوالي الذي كان يقتل كل من يكره ويأمر بالملاحم من عند نفسهِ بلا التماس من احد ولست منافيًا في ذلك بل كان يشجع الناس ويعدهم العطايا السنية ومع ذلك فان قيصر الذي تحاول ان تحملهُ اليوم على القساوة قد عاتب عمالهُ القساة

(٥) ولكن أتقول يا تيبرون انك لا تطلب قتل ليكاريوس . انا اعتقد ذلك فلقد عرفتك وعرفت أباك وعترتك وقد عرفت ان حبَّ الفضيلة والانسانيَّة والعلوم والفنون كانت في كل الازمان صفةً متوارثةً في بيتكم فانا على يقين اذن انك لا تطلب الدم لكنما سلكت طريقة الحمق . ألا وقد بينت لنا انَّ ما كابد ليكاريوس من العناء لا يشفي غليلك فهل بعد ذلك غير الموت . هو مغرَّبٌ منفيٌّ فما لك عليهِ بعد هذا أأن لا يُعنى عنهُ . فيالهُ من ملتمس هو لعمر الحق اشدّ قسوةً وافظع بربريةً . وانَّا نسأل في قصر قيصر نعمةً واحدةً نلخصها بدعواتنا وعبراتنا حارّين على قدميهِ وتعويلنا على حلمهِ اشدّ من تعويلنا على صحة دعوانا . واما لُذت

تتفرغ ما في وسعك حتى تُرفض طلبتنا ولايجاب سؤلنا فانت تحمد زفراتنا ومتى قبلنا ركبتيك تمنعنا ان نرفع صوت الاستعطاف والاسترحام . فلو فاجأتنا ساعة استعطفنا قيصر وتضرعنا لهُ في صرحهِ ولم يذهب تضرعنا باطلاً ومتفت وتشفع أنَّ يا قيصر لا تشفع اخوةٌ يشفعون في اخٍ لم لكان ذلك صنيعاً بريرياً وأقبح من هذا وأفظع ان تحضر المحكمة لتحاول ان تمنع قيصر ان يجود بالعفو مع الحاحنا في التماسهِ وان تغلق بابَ حلمهِ في وجوه كثير من الاشتياه

يا قيصر اصرّح بين يديك بما يخطر لي فاقول لو لم يكنْ سعدك العالي معجوناً بما جبلتَ عليهِ من رقة الطباع . نعم بما جبلتَ عليهِ من رقة الطباع (انا افهم ما اقول) لمشى سواد الحداد يأس انتصارك فان كان في المغلوبين جماعة يريدونك قاسياً فكم من امثال لم في الغالبين وكم في الغالبين ايضاً من اهل الحفائظ الذين لا تُحلُّ عقدة غضبهم يحولون بين الناس وبين حلمك وعفوك فانَّ هؤلاء الذين اصابوا نعمة عندك لا يريدونك الاَّ قاسياً على غيرهم

اذا نحن أقنعنا قيصر ان ليكاريوس لم يأتِ الى افريقية . واذا توسَّلنا الى انقاذ وطني مرزوء بكذبٍ يسوغهُ الشرف ولتقضي بهِ الانسانيةُ يكون قبيحاً والحالة هذه ان تفنّد ذلك الكذب وتدحضهُ وان حقَّ ذلك لاحد فلا يحقُّ لمن بتأييدهِ تلك الدعوى اتهام هذا الخطر نفسهُ . على ان القصد الى ان يكون قيصر مخدوعاً او القصد الى انهُ لا يعفو امران مختلفان كل الاختلاف . ولو كان ذلك لكنت قلت يا قيصر ان الناس يخدعونك . فان ليكاريوس كان في افريقية وثار بالسلاح وخرج عليك ماذا نقول اليوم . نقول احذر أن تعفو . أهذه لغة انسان في حقّ انسان . يا قيصر اعيذك من خاطبك بمثل هذا الكلام فقد جرَّد قلبكَ من الحنان وأخمد نفس المروءة ولكن يدهُ أضعف من ان تستأصل الحقّ من قلبك

(٦) ان تيبرون في عرضهِ الاوّل أراد ان يتكلم في جريمة ليكاريوس ان لم اكن واهماً . وما دعواهُ على ليكاريوس الاَّ من الامور المدهشة فما من احدٍ اشتكى شكوى لها مثل هذا الوجه . ولا سمع ان الشاكي كان مجرماً الجريمة التي شكا بها غيرهُ . أهذا يا تيبرون تسميهِ جرماً ولمَّ سميتهُ . انَّ هذه الدعوى حتى الساعة لم تحلل . فبعض يسميها خطاء وبعض يسميها خوفاً وبعض قلة عزم وبعض يدعوها طمعاً وشراهةً وبغضاً وعناداً

وقال الذين أتى منهم ان هذه الدعوى جنون . وانت وحدك تدعوها جرماً فان طلبنا كلمةً محكمةً او اسماً وسماً موافقاً لبلايانا فأقول ان سطوةً مشؤومةً منتشرة في الشيعة جرَّت الاضطراب والمذبان على الأرواح كافةً وانهُ لا عجب ان كانت الآراء البشرية تتجلى

لإرادة الآلهة الضابطة الكل وفي امكاننا ان لا نكون اشقياء وحاكنا ذلك المظفَّر العظيم . لكن لا أعني الذين هلكوا . انما أعني الذين هلكوا . نعم قد يكون انهم كانوا طماعين اهل حظّ وعناد ولكن لا بدَّ على الاقل ان لا نهين روح بومبه [1] ولا ارواح غيره بنزعم [2] بالحمق والغضبي وقتلة الآباء . أجلك يا قيصر عن النطق بهذه الالفاظ الفاضحة الاّ وانك لم تقصد بالحرب الاّ كشف العار . وجيشك المظفر لم يحارب الاّ اثباتاً لحقوقه وحفظاً لمقامك . ولما عقدت الصلح لم تعقده مع المنافقين بل مع فضلاء بلادك

يا قيصر اما انا فلا يكون قيمة في عيني لما اوليتنيه من النعم لو علمتك عفوت عني عفوك عن مجرم واما انت فلو ابتيت جمّاً غفيراً من الخائنين في مقاماتهم وكراماتهم ما كنت قد خدمت الوطن وقد توهمت بادىء بدء ان الفتنة في البلاد كانت اختلافات آراء لا وقائع دموية بين متضادين . نعم كلا الحزبين كان يريد مصلحة المملكة لكنها التحزّب والمصلحة الشخصية قد أديا الى اغفال هذا المقصد . وأما فضل رؤساء الفريقين فقد كان سواء ولو لم يكن فضل اشياعهم متساوياً . فاشتبه الامر على الناس فلم يقتدروا ان يميزوا بين الصالح والفاسد . واما اليوم فقد جاءت الآلهة بفصل الخطاب واذ كان حظك قد ظهر ظهوراً باهراً فلا يسعنا الا السرور بظفر ان كان قد هلك فيه احد فبحد السيف في حومة الوغى

(٧) لنخلّ الدعوى العمومية اي مصلحة الامة ولنقبل على دعوانا الخصوصية . اتقول يا تيبرون ان خروج ليكاريوس من افريقية كان اسهل عليه من عدم اتيانك اليها . انهُ كان عليه ان ينفذ اوامر مجلس الشيوخ ولا تنسَ ان مجلس الشيوخ نفسهُ كان قد انتدب لكاريوس لهذه الخطة فأطاع ايام كانت الطاعة فرضاً لازماً وحين اطعت انت لم تكن الطاعة واجبة على احد . فهل اعدك في ذلك ملوماً . كلاّ ان محتدك وامتك وبيتك ومبادئك لم تكن تسمح لك ان تأتي امراً غير هذا فلا يسعني ان اوافقك على الافتخار بصنيع انت تلوم الناس عليه

قد جرى الاقتراع على ولاية الاقاليم بامر مجلس الشيوخ فخرجت افريقية في نصيب تيبرون وكان غائباً عليلاً فعزم ان لا يقبل الولاية وقد تمكنت مما لي من العلاقات معهُ ان اقف على تفاصيل هذه المسئلة كافة — قد ربينا معاً وكنا رفيقين في الجندية ثم مرتبطين بالمصاهرة وحبيبين منذ قديم وزد على ذلك ان اتفاق الآراء قد احكم ايضاً كل هذه الرُّبط

(١) بومبه الشهير في افريقية وغلب في فرسال بعد وقعة عائلة وقتل في مصر بامر بطليموس العاشر وكان ذلك سنة ٤٨ وميلادهُ سنة ١٠٦ قبل المسيح

(٢) يقال نبزه بكذا : اذا لقبه به وهو شائع في الالقاب المستهجنة القبيحة

بينا وثق هذه الاواصر[1] فاعلم اذن ان اول فكر افكره تيبرون ان لا يغادر رومة لكن اخوا عليه واستجاروا باسم الشيخة المقدس بحيث لو كان رأيه مخالفاً لآرائهم لما استطاع ردّ تلك الالحاحات الشديدة ولا التخلص منها فاذعن بن بالاحرى اطاع سلطة رجل نبيل عالي المقام فشخص في اولئك الذين كانوا متحزبين لهذه الدعوى نفسها ولما كان قد ابطأ في سيره شيئاً وصل افريقية فاذا هي في يد غيره فكان ذلك مدعاة لشكوى تيبرون من ليكاريوس وحقدهِ عليهِ

لكن ان كل ابنائه الولاية على هذه البلاد جريمةً فانت الذي اردت ان تكون افريقية تحت امرك وهي اعظم اقاليمنا التي اعدتها الطبيعة لان تحارب الرومانيين فلم تكن انت اخف جريمة من رجل لم يكن اشدّ منك ميلاً الى البقاء بها ومع كل ذلك فما الذي تشكوهُ بهِ . أتشكو عدم قبولنا في افريقية . وهب انك قبلت فيها اكنت سلمتها الى قيصر ام كنت منعتهُ منها بالسلاح

(٨) لاحظ يا قيصر كم يلقي في قلبي حلمك وكرم اخلاقك من الشجاعة بل من الجسارة . فان زعم تيبرون ان اباهُ كان قد سلمك الاقليم الذي مجلس الشيوخ والقرعة كانا قد القيا مقاليدهُ اليهِ لما ترددت حتى في حضرتك ان انكر باشد العبارات وابلغها مقصداً لو انفذ لكان انفاذهُ مفيداً لمصلحتك . فانك لو انتفعت بالخيانة لاستحقرت الخائن وهذا القول حسبي لا ازيدك عليهِ . وليس ذلك خوف ان أخدش مسامعك الحليمة بل كراهية ان يعزى الى تيبرون امرٌ لم يدر في خلدهِ . قد حظر عليك يا تيبرون ان تطأ ارض اقليمك وزعمت ان منعهم اياك كان على اقبح الوجوه هواناً فكيف اطقت ذلك الهوان والى من رفعت شكواك بل أالى من سرت تحت لوائهِ . فان كنت قد اتيت الاقليم لتخدم قيصر فكان ينبغي ان تنضم الى قيصر فلم تفعل بل ذهبت فاعتزلت الى عدوهِ بوسبه فكيف تجرأت ان تشكي بين يدي قيصر على من منعك ان تحارب قيصر . ومع ذلك تفتخر سوءاً انهُ لو لا معارضة فاريوس وغيره من الناس لكنت قد سلمت الاقليم الى قيصر . واني انتم على ليكاريوس انهُ حرمك فرصة ظفر باهر ومجد عظيم

(٩) قيصر . انظر اي ثبات لتيبرون الرجل المتحلي بكثير من الصفات الرائعة . فالثبات افضل عندي من سائر الفضائل ولو لم اعلم انك انت تملك تقدمهُ على جميعها لما ذكرت

(١) الاواصر جمع آصرة وهي ما عطفك على الرجل من رحم او قرابة او صهر . والآصرة ايضاً المعروف

ذلك فهل رأيت قطُّ في رجل ما ثبات مثل هذا بل صبرٌ كصبره فما اقل أولئك الذين في الفتن الاهلية كانوا قادرين ان يتحملوا او من لم يحسنوا استقبالهم بل اطرحوهم بقساوة . مثل هذا السعي يشف عن نفس كبيرة ويدلُّ على ان لا هوان ولا شدة ولا خطر تستطيع ان تذهب بصاحبه عن الحزب الذي حازبهُ

هذا ولنفترض ان تيبرون وفاريوس سواء في الفضائل والشرف وعلو المقام والذكاء فان الاول اي تيبرون يفضل الثاني اي فاريوس بانهُ وقف على اقليم بامر مجلس الشيوخ مؤيدًا بسلطة شرعية وما رفضهُ الاقليم ذهب لكن لا اني قيصر خوف ان يقال انه كان يفعل ذلك عن حقد ولا انى رومة تملصًا من ان يرى بانتهاون والتواني ولا الى اقليم آخر من الاقاليم محاذرة ان يقال انهُ خطأ الحزب الذي مال اليه بل توجه الى مقدونية الى معسكر بومبه الى ذلك الحزب الذي كان قد اطرحهُ اطراحًا مخزيًا

ان قلة مبالاة الرجل الذي انحزت اليه بما نزل بك من الاهانة فتت في عضدك وبردت حميتك . نعم كنتم لي المعسكر لكن قلوبكم كانت بعيدةً منهُ ولا غرو ففي الحروب الاهلية يتشوق الناس كما كنت انت تتشوق وانتم تتشوقون الى الفوز . نعم لا انكر اني كنت أشير بالسلم لكن كان قد فات وقتهُ . فكان التفكر في السلم ضربًا من الجنون وقد كانت الجيوش في حومة الوغى فكنا كما قلت واقول نريد ان نغلب ولا سيما انت اذ اضحت الى الجيش فلم يبقَ لك ندحةٌ عن الانتصار او الموت ومع ذلك ففي هذه الحال لا اشك انك لا تفضل الحياة التي منَّ بها عليك قيصر على الانتصار الذي فتوق اليه

(١٠) ما كنت قلتُ ما قلتَ يا تيبرون لو علمت انك ستقدم على ثباتك او ان قيصر سيقدم على احسانه فاي اهانة كنت تسعى للانتقام لها . أاهانتك ام إهانة الشيخة فان كانت إهانة الشيخة فابدأ بتبرئة ثباتك مع هذا الحزب وان كانت اهانتك افتظن ان قيصر ينتقم لك من اعدائك وهو لم ينتقم من اعدائهِ فهل ترى يا قيصر اني حاولت ان أدافع عن ليكاريوس وان ابرئهُ وازكيهُ ولم يكن غرضي من الكلام الاَّ ان احرك مروءتك وحلمك ورأفتك

قد دافعتُ في كثير من الدعاوى حتى معك حين نجاحك الاول في المحاماة ولم تسمعني قط اقول امام المحاكم اعفوا ايها القضاة ان من أدافع عنهُ قد ارتكب الخطأ والاثم لا عن رويَّة وان كان لا سمحت الآلهة قد وقع ذلك منهُ فيما بعد

هذا منهج المدافعة عن ولدي بين يدي والدهِ واما القضاة فيقال لهم لم يفعل ذلك ولم يكن لهُ اربٌ فيهِ والشهود مزورون والشكوى افتراء . الا قل يا قيصر فلست هنا الاَّ قاضيًا قل اني

حزب اتبع ليكاريوس . اذا اسكت على هذا واغضل عن كثير من الوسائل التي كانت تتم موقع القبول عند قاضٍ . فانهُ غيبٌ ان سافر وكيلاً عن الحاكم فيزِ انتقال وبعد ان ترك في اقليم كل مدة السلم وعقب ان فاجأتهُ حرب غير متوقعة فبدلاً من ان يسعى في قتالك كان مبنهُ معك يدعوك بالفوز . هذا ما ينبغي ان يُقال لقاضٍ لو كنتُ قاضياً لكني اخاطب اباً فاقول اني اخطأت وغلطت وانا نادم مستغفر عن زلتي فان كنت حتى الساعة لم تعفُ عن احدٍ فتوسَّلي خاصة مني وان كنت قد عفوت عن كثير من المجرمين فاجرِ معي على ما خوَّلتني من حقّ الامل والرجاء . أفيبقى ليكاريوس بلا امل وقد اذنت ان اقوم شفيعاً بين يديك

(١١) لا على خطابي ولا على التماس اصحابك بيت الأمل في نيل الارب فقد علمت انك في جميع الحوادث التي يشفع فيها عندك في وطنيٍّ كنت لحجج الشفعاء ارعى منك لشفاعتهم فلا تراعي مالهم من الحظوة قدر ما تراعي اهتمامهم بشأن من يشفعون فيهِ عندك ومع انك ترتاح الى ان تُغمر اصقياءك بالنعم فالذين يتمتعون بكرمك يظهر لي انهم بعض الاحيان اسعد حالاً منك انت الذي تنم عليهم فمع ذلك قلت واقول ان حججهم تكون اقوى عليك من شفاعتهم . والذين تتبيَّن غمهم اعدل فلهم على قلبك حقوق اقوى

لا ريب انك بالابقاء على ليكاريوس تفيض الابتهاج على قلوب جمٍّ من اوليائك فلا تصغِ الاَّ الى الحجج التي من شأنها ان تحضك على ذلك . فهؤلاء السابان الذين أجللت بسالتهم وهذا اقليمهم زهرة ايطاليا وغرَّة جبينها واثبت منلي للشيخة هم يعرفونك معرفة كاملة . ألا انظر الى توجُّعهم وحزنهم . ثم اعلم منزلة بروكيوس في عينك وهو وابنهُ حاضران هنا وانت ترى الدموع منسجمة من عيونهما والغَّاء بادية على وجوههما . وهل اذكر اخوة ليكاريوس آه فلا تحسبنَّ هذا يتعلق بخلاص رجلٍ واحدٍ فانت بزمع إما ان تبقي في رومة بني ليكاريوس الثلاثة واما ان تنفيهم ثلاثتهم . وانفي كائناً ما كان يظهر لهم افضل من الوطن والبيوت وآلهتها . وان كان هو وحدهُ الذي ينفى فعسى دموع اخوتهِ ومن اخذهم التوجع لهُ ورأفتهم الاخويَّة وعواطفهم الطبيعيَّة ان تلاقي منك قلباً يرثي لها . وعسى ان تحقق هذه الكلمة الخارجة من فم الغالب "خصومي كما تقولون يعدُّون عدوًّا كلَّ من لا يحطب في حبلهم[1] وانا اعدُّ كل من لا يحطب في حبل عدوي صديقاً لي" . اترون ايها الوطنيون الاماثل عترة بروكيوس كلهم ومرسيوس وميزينيوس وكورفيديوس الفوارس

(1) يقال حطب فلان في حبل فلان : اذا نصبوهُ وعاداه

الرومانيين لابسين ثياب الحداد . انتم تعرفونهم وتجفونهم ولقد كانوا معكم ولقد هجنا عليهم ونمام على تنبيهم حتى ان بعضنا اوسعوهم وعيداً وتهديداً

الا استبق لاصفيائك الصفو الذي يسألونك الابقاء عليه وبيّن ان وعد قيصر لم يكن ملكاً (١)

لو استطعت ان ترى ما كان من الاتحاد بين بني ليكارس كما هو لخلت انهم ثلاثتهم كانوا معك ومن ذا الذي يجد طريقاً الى الشك ان ليكاريوس لو تسنّى له ان يكون في ايطاليا لانحاز الى هذا الحزب كما انحاز اليه اخوته . هل من احد يجهل ما بين هذه الاخلاق القويّة الشابه من متانة الميادىء واتفاق الآراء . وهل خالج احداً الريب ان لا يراهم مختلفي الاهواء والمصالح . نعم كلهم ثلاثتهم كان هواهم معك غير ان واحداً قد اقصتهُ الزوبعة التي حدثت في البحر . وهب ان ذلك كان عن اختيار فلهُ اسوةٌ بكثيرين ممن ظفروا بعفوك وكرم صفحك . ذلك وافترض الآن انهُ سافر وفي ضميره ان يوقد نار الحرب وانهُ انحاز عنك وعن اخوته ايضاً فاخوتهُ الذين كانوا معك يشفعون فيه عندك . وان الارتياحات التي أُحدثت لك في رومة تشهد كما اتذكر بما بدا لليكاريوس وقد كان وزير المالية يوم ذاك من العناية والهمة تأييداً لحقوق مقامك وفي الاشارة الى ذلك غناء . فارجو ان قيصر الذي نفسهُ الشريفة الكريمة لا تستطيع ان تنسى الاّ الاهانة ان يذكر ما للوزير المالية هذا من الخدم المحمودة وان يذكر سيرة بعض حلفائه ورفقائه

لم يكن في وسع ليكاريوس ان يسير فيتلافى ما حدث فلم يقم في ضميره يوم ذاك الاّ ان يثبت لك غيرتهُ وخلوصهُ وهو اليوم يتضرع اليك في خلاص اخيه . فاذا ذكرت هذه الخدمة قدّمت لهم ولجميع هؤلاء الوطنيين الاجلاء ولي انا وليهم بل لجميع الشيعة ثلاثة اخوة ملءُ نفوسهم شرف وفضيلة . فما صنعتهُ من عهد قريب في مجلس الشيوخ مع مرسلوس العظيم فتكرّم واصنعهُ اليوم في الفورم (٢) مع اخوة يحترمهم هذا المشهد . فقد وهبت مرسلوس لمجلس الشيوخ فهب ليكاريوس للشعب الذين خاطرهم غالٍ عندك . فاذا كان يوم الصفو امجد لك واحبّ الى الشعب الروماني فلا تتردّد يا قيصر ولا تتأخر عنهُ . استطلقك ان تغتنم الفرص الموصلة الى مثل هذا المجد فلا احبّ الى الناس من الرأفة وهي موضع اعجابهم دون جميع ما تزيّنت به من المناقب وبها يُعرف الناس انهم ادنى الى الالوهيّة . فما من شيء اعظم

(١) الملك الخ نسكون : وقد لا يتوى به الوفاء والغرض منهُ ان يردّ به السائل طيب النفس
(٢) الفورم مكان برومة كان يجتمع فيه للتكلم في الشؤون العمومية

في سعادتك من ان تجمع البشر سعداء وما من شيء احسن في طباعك من ان تعبوا ذلك

ربما كانت هذه الدعوى لتتفي خطبة اطول لكنها خطبة اقصر من هذه كانت كافية لقلب من مثل قلبك . ولما كان قلمي في اعتقادي ان افضل خطيب يقوم بين يديك انما هو انت نفسك وقفت عند هذا الحد لا اضيف اليه الا هذه العبارة انك بالعفو عن ليكاريوس الغائب تقلد نعمة جسيمة اعناق كل من ترى من هؤلاء الملتفين بين يديك . انتهى

سعيد الخوري الشرتوني

الشعر ومصلحة الامة

كان شعراؤنا يرفعون قصائدهم الى الملوك والامراء ولا يضمنونها الا المديح والاطراء وان الوا بغاية لم تتعد مصلحة لهم او التعريض بامر لا مصلحة فيه للامة اما الآن فصرنا نرى من الشعراء اهتماماً بالمصالح العامة . وقد بعث الينا احد فضلاء تونس بقصيدة رفعها الى مولاه باي الايالة التونسية مهنئاً اياه بالعام الجديد ومتوسلاً اليه ان يرفع منار العلم في البلاد . ومما جاء فيها قوله

سعد السعود اليك اهدى في ساعة الاقبال وفدا
عام سعيد انعمكم دامت لك العلياء تهدى
ان الولاء اعز ما يهدى لسدتكم ويسدى
سعدت مطالع عمركم وحباك عون الله رفدا
وامدكم توفيقهُ فيما الى الاصلاح ادّى
يا ايها الملك الذي فرشت لهُ العلياء خدا
ما جاء مثلك سيد ركب الثناء اليهِ يحدى
ملك تراهُ مع الفتـ وة للعلاء ابًا وجدا
اسهر على خير البلا د فانك الملك المفدّى
وامدد يمينك للنجا ح وجدهُ في الاصلاح جدا
ان كنت أصدق سيدي فالحال تؤذي الحر جدا
او كنت اكذبهُ فقد داهنتهُ والغش اعدى
ابناء قومك اصبحوا سيفي زمرة الاموات عدا